﴿۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٨٩﴾ [البقرة: 189]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّ مَا قَبْلَهَا مِنَ الْآيَاتِ نَزَلَتْ فِي الصِّيَامِ، وَأَنَّ صِيَامَ رَمَضَانَ مَقْرُونٌ بِرُؤْيَةِ الْهِلَالِ، وَكَذَلِكَ الْإِفْطَارُ فِي شَهْرِ شَوَّالٍ ... وَكَانَ أَيْضًا قَدْ تَقَدَّمَ كَلَامٌ فِي شَيْءٍ مِنْ أَعْمَالِ الْحَجِّ، وَهُوَ: الطَّوَافُ، وَالْحَجُّ أَحَدُ الْأَرْكَانِ الَّتِي بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَيْهَا، ... فَأَتَى بِالْكَلَامِ عَلَى الرُّكْنِ الْخَامِسِ، وَهُوَ: الْحَجُّ؛ لِيَكُونَ قَدْ كَمُلَتِ الْأَرْكَانُ الَّتِي بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَيْهَا"[1] "فَمُنَاسَبَةُ وَضْعِهَا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ هِيَ تَوْقِيتُ الصِّيَامِ بِحُلُولِ شَهْرِ رَمَضَانَ، فَكَانَ مِنَ الْمُنَاسَبَةِ ذِكْرُ الْمَوَاقِيتِ لِإِقَامَةِ نِظَامِ الْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهٍ، وَمِنْ كَمَالِ النِّظَامِ ضَبْطُ الْأَوْقَاتِ"[2].

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأَهِلَّةِۖ﴾: جمع هِلال، وهو غُرّة القمر حين يراها النّاس، يقال لها: هلال ليلتين، ثمّ يكون قمرًا بعد ذلك.

والمعنى المحوري: ذَهابُ وَسَط الشيء ومعظم أثنائه مع بَقاء سائره شاغلًا مكانه، كهلال السماء تَبقى بَعضُ حافته ولا يظهر وسطه[3]، وسمِّي الهلال هلالاً؛ لأنه حين يُرى يُهِلُّ الناس بذكر الله وبذكره "[4].

ومعنى: ﴿عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ﴾: عَنْ تَغَيُّر أحوالها بزيادةٍ أو نقصانٍ[5].

2) ﴿مَوَٰقِيتُ﴾: جمع ميقات، وهو الوقت، كالميعاد بمعنى: الوعد، والهلال: ميقات

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/234، وينظر: الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 3/177.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/193.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (هلل).
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/616.
(5) النيّسابوريّ، إيجاز البيان: 1/138.

الشّهر[1]. "وهو مِفْعال من الوقت"[2]. فهي "معالم يوقّت بها النّاسُ مزارعهم ومتاجرهم، ومحالَّ ديونهم، وصومهم وفطرهم، وعدّة نسائهم، وأيّام حيضهنّ، ومدّة حملهنّ، وغير ذلك"[3]، من مصالح العباد، ومواقيت الحجّ أيضًا، يعرف بها وقته وأشهره"[4].

ومعنى مواقيت للنّاس: ما يتعلّق به من أمور معاملاتهم ومصالحهم، كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: 5]، ونبّه بذكر الحجّ على ما يتعلّق به من العبادات"[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبر اللّه تعالى مخاطبًا النّبيَّ ﷺ: أنّهم يسألونك عن الأهلّة وتغيُّر أحوالها، قل لهم: جعل اللّهُ الأهلّةَ علاماتٍ، يعرف بها النّاسُ أوقاتَ عباداتهم المحدّدة بوقت، مثل: الصّيام والحجّ، ومعاملاتهم، وليس الخير ما تعودّتم عليه في الجاهليّة وبداية الإسلام، من دخول البيوت من ظهورها، حين تُحْرِمون بالحجّ أو العمرة، ظانّين أنّ ذلك قربة إلى اللّه، ولكنّ الخير، هو المبادرة إلى تقوى اللّه، واجتناب المعاصي، ودخول البيوت من أبوابها، عند إحرامكم بالحجّ أو العمرة، وخشيةُ اللّه تعالى في كلّ أموركم، لتفوزوا بكلّ ما تحبّون من خيري الدّنيا والآخرة[6].

وقد "نزلت[7] في معاذ بن جبل وثعلبة بن عَنَمَة الأنصاريَّيْن، قالا: «يا رسول اللّه ما بال الهلال يبدو دقيقًا، ثمّ يزيد حتّى يمتلئ نورًا، ثمّ لا يزال ينقص حتّى يعود دقيقًا كما بدأ، ولا يكون على حال واحدة؟، فأنزل اللّه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾»[8].

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/617.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/401.
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/164.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/261.
(5) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/401.
(6) التّفسير الميسّر، ص: 29.
(7) أخرج البخاريّ ومسلم عن البراء ﷺ قال: نزلت هذه الآية فينا، كانت الأنصار، إذا حجّوا؛ فجاؤُوا، لم يدخلوا من قِبَل أبواب بيوتهم، ولكن من ظهورها، فجاء رجل من الأنصار فدخل من قِبَل بابه، فكأنه عُيّرَ بذلك، فنزلت: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۚ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾، وفي رواية للبخاري والنَّسَائي عن البراء ﷺ قال: كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره، فأنزل اللّه: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۚ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾، ينظر: خالد المزيني، المحرّر في أسباب نزول القرآن: 1/244، وكذلك الخازن، لباب التّأويل: 1/120، وكذلك: الواحدي، التّفسير البسيط: 3/615.
(8) الخازن، لباب التّأويل: 1/120، وينظر: الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/615.

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

الاستئناف في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾:

لتقدّم ما يثير العزم إلى السّؤال عنها صريحًا:

كثيرٌ من الأحكام تدور على الهلال، وقد حرّك العزم للسّؤال عنه، فبيَّن ذلك بقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾، وجعل ذلك على طريق الاستئناف جوابًا لمن كأنّه قال: هل سألوا عن الأهلة؟ فقيل: نعم، وذلك لتقدّم ما يثير العزم إلى السّؤال عنها صريحًا، فكان سببًا للسّؤال عن السّؤال عنها[1]، قال قتادة: سألوا نبيَّ الله ﷺ عن ذلك: لِمَ جُعلت هذه الأهلّة؟ فأنزل الله فيها ما تَسمعون: ﴿هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾، فجعلها لصوم المسلمين ولإفطارهم، ولمناسكهم وحجّهم، ولعدّة نسائهم وَمحلّ دَينهم في أشياء، والله أعلم بما يُصلح خلقه[2]".

الاتّساع والمجاز في واو الجماعة في: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾:

النّسبة إلى جمعٍ_ وإن لم يصدر الفعل إلّا من واحدٍ منهم _كثيرٌ في كلامهم

"وَالضَّمِيرُ في ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ ضَمِيرُ جَمْعٍ عَلَى أَنَّ السَّائِلِينَ جَمَاعَةٌ، وَإِنْ كَانَ مَنْ سَأَلَ اثْنَيْنِ، كَمَا رُوِيَ، فَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ نِسْبَةِ الشَّيْءِ إِلَى جَمْعٍ، وَإِنْ كَانَ مَا صَدَرَ إِلَّا مِنْ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَوِ اثْنَيْنِ، وَهَذَا كَثِيرٌ فِي كَلَامِهِمْ، قِيلَ: أَوْ لِكَوْنِ الِاثْنَيْنِ جَمْعًا عَلَى سَبِيلِ الِاتِّسَاعِ وَالمجاز"[3]. "والضّميرُ في ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ ضميرُ جماعةٍ، وفي القصّةِ أنّ السّائل اثنان، فَيَحْتَمِلُ ذلك وجهين، أحدُهما: أنَّ ذلك لكونِ الاثنين جمعًا. والثّاني: من نسبةِ الشّيء إلى جمْعٍ، وإنْ لم يَصْدُرْ إلَّا من واحدٍ منهم أو اثنين، وهو كثيرٌ في كلامِهم"[4]؛ نَظَرًا لِأَنَّ الْمَسْؤولَ عَنْهُ يَهُمُّ جَمِيعَ السَّامِعِينَ أَثْنَاءَ تَشْرِيعِ الْأَحْكَامِ، وَلِأَنَّ مِنْ تَمَامِ ضَبْطِ النِّظَامِ، أَنْ يَكُونَ الْمَسْؤولُ عَنْهُ قَدْ شَاعَ بَيْنَ النَّاسِ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/97-98.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 3/553.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/234.
(4) السّمين، الدُّر المصون: 2/302.

وَاسْتَشْرَفَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ لِمَعْرِفَتِهِ، سَوَاءٌ فِي ذَلِكَ مَنْ سَأَلَ بِالْقَوْلِ، وَمَنْ سَأَلَ فِي نَفْسِهِ[1].

السرّ في جمع الهلال وهو واحد: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾:

تنزيلاً لاختلاف الأوقات منزلة اختلاف الذّوات

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾، "الْأَهِلَّةُ: جَمْعُ الْهِلَالِ، وَجُمِعَ، وَهُوَ وَاحِدٌ فِي الْحَقِيقَةِ مِنْ حَيْثُ كَوْنُهُ هِلَالًا وَاحِدًا فِي شَهْرٍ، غَيْرَ كَوْنِهِ هِلَالًا فِي آخَرَ، فَإِنَّمَا جُمِعَ أَحْوَالُهُ مِنَ الْأَهِلَّةِ، وَيُرِيدُ بِالْأَهِلَّةِ شُهُورَهَا، وَقَدْ يُعَبَّرُ بِالْهِلَالِ عَنِ الشَّهْرِ لِحُلُولٍ فِيهِ، كَمَا قَالَ:

أَخَوَانِ مِنْ نَجْدٍ عَلَى ثِقَةٍ *** وَالشَّهْرُ مِثْلُ قُلَامَةِ الظُّفْرِ"[2]

"وجمعها باعتبار هلال كلّ شهر أو كل ليلة؛ تنزيلاً لاختلاف الأوقات منزلة اختلاف الذّوات"[3].

سرُّ العدول عن (فقل) إلى (قل) في قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ﴾:

إجابات الأمور الدنيويَّة بـ(قل)؛ لأنها ثابتة واقعة

"وجواب السّؤال في القرآن كلّه بغير (فاء)، مثل: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى﴾، قال ابن عرفة: وعادتهم يجيبون بأنّ الكلّ أمور دنيويّة، فالسّؤال عنها ثابت واقع في الوجود، وقوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ﴾ [طه: 105] فأمرٌ أخرويٌّ، والكفّار منكرون للبعث، فالسّؤال غير واقع لكنّه مقدّر الوقوع في المستقبل، أي: (إنْ يَسْأَلُوكَ عَنِ الجِبَالِ)، فهو جواب لشرط مقدّر، فحسنت فيه الفاء"[4]، وفي هذا السّؤال عن الأهلّة.

بلاغة الإيجاز في قوله تعالى: ﴿مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾:

أي: مواقيت لمقاصد الناس، فحذف إشارة إلى تعدُّدِها

"لَيْسَ الْمَعْنَى مَوَاقِيتَ لِذَوَاتِ النَّاسِ، وَإِنَّمَا الْمَعْنَى: مَوَاقِيتُ لِمَقَاصِدِ النَّاسِ الْمُحْتَاجِ فِيهَا لِلتَّأَقِيتِ دِينًا وَدُنْيَا"[5]. "وَلَمَّا كَانَتْ تِلْكَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/194.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/341، وينظر: ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/261.
(3) القنّوجي، فتح البيان: 1/382.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/556.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/236.

الْمَقَاصِدُ يُفْضِي تَعْدَادُهَا إِلَى الْإِطْنَابِ، اقْتَصَرَ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾"[1].

السرّ في الإعراض عن ذكر الأعمال المؤقّتة:

للدلالة على الشُّمول

"وَلَمْ تُذْكَرِ الْأَعْمَالُ الْمُوَقَّتَةُ بِالْأَهِلَّةِ؛ لِيَشْمَلَ الْكَلَامُ: كُلَّ عَمَلٍ مُحْتَاجٍ إِلَى التَّوْقِيتِ"[2]، أي: "مواقيت لهم في صيامهم وحجّهم من العبادات، وفي نحو عدّة النّساء، وآجال العقود من المعاملات؛ فإنّ التّوقيت بها يسهل على العالم بالحساب، والجاهل به، وعلى أهل البدو والحضر، فهي مواقيت لجميع النّاس، وأمّا السّنة الشّمسيّة؛ فإنّ شهورها تعرف بالحساب، فهي لا تصلح إلّا للحاسبين، ولم يقدروا على ضبطها إلّا بعد ارتقاء العلوم الرّياضيّة بزمن طويل"[3].

عطف الخاصّ على العامّ في: ﴿مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾:

بيان عِظَم منزلة الحجّ، واحتياج مناسكه إلى دقّة التوقيت

﴿وَٱلْحَجِّ﴾: مَعْطُوفٌ في الظاهر عَلَى قَوْلِهِ: ﴿لِلنَّاسِ﴾، والتَّقْدِيرُ: وَمَوَاقِيتُ لِلْحَجِّ، فَحُذِفَ الثَّانِي؛ اكْتِفَاءً بِالْأَوَّلِ، وَالْمَعْنَى: لِتَعْرِفُوا بِهَا أَشْهُرَ الْحَجِّ وَمَوَاقِيتَهُ[4].

والحقيقة أنّه ليس معطوفًا على النّاس، بل على المضاف المحذوف الّذي ناب (النّاس) منابَه في الإعراب[5]، "تقديرُه: ومواقيتُ الحَجِّ، فحذف الثّاني اكتفاءً بالأوّل"[6]، "وَعَطَفَ الْحَجَّ عَلَى النَّاسِ مَعَ اعْتِبَارِ الْمُضَافِ الْمَحْذُوفِ مِنْ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ لِلِاهْتِمَامِ بِهِ"[7]، و"ذكر الحج اهتمامًا بذكره، وإن كان قد دخل في المواقيت

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/236.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/196.
(3) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 2/163.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/236.
(5) السّمين، الدّر المصون: 2/304، وينظر: أبو حيّان، البحر المحيط: 2/236.
(6) السّمين، الدّر المصون: 2/304.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/196.

للنّاس"[1]. "ولمّا كان الحجُّ من أعظم ما تُطْلَبُ مواقيته وأشهره بالأهلَّة؛ أُفْرِدَ بالذِّكْرِ"[2]، وَكَأَنَّهُ تَخْصِيصٌ بَعْدَ تَعْمِيمٍ؛ إِذْ قَوْلُهُ: مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ، لَيْسَ الْمَعْنَى مَوَاقِيتَ لِذَوَاتِ النَّاسِ، وَإِنَّمَا الْمَعْنَى: مَوَاقِيتُ لِمَقَاصِدِ النَّاسِ الْمُحْتَاجِ فِيهَا لِلتَّأْقِيتِ دِينًا وَدُنْيَا[3].

السرّ في إفراد الحجّ بالذّكر: ﴿قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾:

إِفْرَادُ الْحَجِّ بِالذِّكْرِ لِبَيَانِ أَنَّ الْحَجَّ مَقْصُورٌ عَلَى الْأَشْهُرِ الَّتِي عَيَّنَهَا اللَّهُ تَعَالَى لِفَرْضِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ نَقْلُ الْحَجِّ مِنْ تِلْكَ الْأَشْهُرِ إِلَى أَشْهُرٍ أُخَرَ، كَمَا كَانَتِ الْعَرَبُ تَفْعَلُ ذَلِكَ فِي النَّسِيءِ[4]، "توقُّف الصّوم على الهلال قد علم من قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: 184]، والزكّاة تتعلّق بالحول، والأصل في تقدير السّنين لعودة الشّمس من نقطة، كأوّل الحمل مثلًا إلى مثلها، بحركتها الخاصّة، والأيمان والجهاد، لا يتعلّقان بوقت معيّن، والصّلاة تتعلّق باليوم بليلته، فلم يبقَ من الأركان المتعلّقة بالشّهر سوى الحجّ، فتعيّن ذكره في هذه الآية"[5].

الحجُّ مقْصُورٌ على الأشْهُرِ الّتي عيَّنها الله تعالى لأدائه فيها

الاقتصار على الحجّ دون العمرة، وحذف اللّام في قوله تعالى: ﴿لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾:

الِاقْتِصَارُ عَلَى الْحَجِّ دُونَ الْعُمْرَةِ؛ لِأَنَّ الْعُمْرَةَ لَا وَقْتَ لَهَا، فَلَا تَكُونُ لِلْأَهِلَّةِ فَائِدَةٌ فِي فِعْلِهَا"[6]، "أَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: وَالْحَجِّ؛ فَفِيهِ إِضْمَارٌ، تَقْدِيرُهُ: وَلِلْحَجِّ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ [البَقَرَة: 233]، أَيْ: لِأَوْلَادِكُمْ"[7].

لـم يـذكـر العمرة؛ لِأَنَّها لا وَقْتَ لَهَا، فَلَا تَكُونُ لِلْأَهِلَّةِ فَائِدَةٌ فِي فِعْلِهَا

(1) ابن جزي، التّسهيل: 1/112.
(2) ابن عادل، اللّباب: 3/334.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/236.
(4) الرّازي، التّفسير الكبير: 5/285.
(5) النّيسابوريّ، المصدر السّابق: 1/526.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/196.
(7) الفخر الرّازيّ، التّفسير الكبير: 5/285، وينظر: ابن عادل، اللّباب: 3/334.

السرّ في تخصيص المواقيت والشّعائر بالهلال دون الشّمس:

الحساب بالأشهر القمريّة جزء من عراقة الهوية في موروثنا الحضاريّ

فإن قيل: لِمَ خصَّ المواقيت بالأهلَّة وأشهرها، دون الشّمس وأشهرها؟ فالجواب: أنَّ الأهلَّة جُعلت مواقيت للنَّاس دون الشّمس؛ لأنَّ الأشهر الهلاليَّة، يعرفها كُلُّ أحدٍ، برؤية الهلال ومحاقه؛ ولذلك عُلِّقت الأحكام الشَّرعيَّة بالشُّهور العربيَّة، كصوم رمضان، وأشهر الحجِّ، والكفَّارات، وحول الزَّكاة وأشهر الإجارات والمداينات، وأشهر الإيلاء، وأشهر العدد، ومدَّة الرَّضاع، وغير ذلك؛ بخلاف الشَّمس، وأشهرها، فإنَّ الشَّمس لا يتغيَّر شكلها بزيادةٍ، ولا نقصٍ، ولا يعرف أوَّله وآخره، ولا تختلِفُ رؤيتها، وكذلك أشهرها لا يعرف أوَّلها وآخرها، إلاَّ الخواصُّ من الحُسَّاب، وليس لها مواقيت غير الفصول الأربعة، وهي: الصَّيف، والشِّتاء، والرَّبيع، والخريف؛ ولذلك لا يتعلَّق به حكم شرعيٌّ، فجعلت الأهلَّة وأشهرها مواقيت للنَّاس، دون الشَّمس[1].

أسلوب الحكيم[2] في قوله: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾:

تنبيه السائل على أنه كان الأحرى به أن يسأل عن فائدة الأهلة لا عن ذاتها:

لأنّهم سألوا عن تَغَيُّرِ الهلال ونقصه وزيادته في أيّام الشّهور، فأجيبوا بالسّبب عن ذلك ونتيجته، وأنّ فائدة ذلك معرفة أوقات النّاس، وأوقات الحجّ، أي: ذلك سؤال عمّا لا يعني، فلا حاجة لكم بالجواب عنه، وإنّما حقّكم أن تسألوا عن نتيجته وهو كذا"[3]، فقد سألوا الرّسول ﷺ عن الهلال لِمَ يبدو صغيراً، ثمّ يزداد حتّى يتكامل نوره؟ فصرفهم إلى بيان الحكمة من الأهلّة، وكأنه يقول: كان الأولى بكم أن تسألوا عن حكمة خلق الأهلة، لا عن سبب تزايدها في أوّل الشّهر وتناقصها في آخره "[4]، وصاحب المنار بعد أن ذكر

(1) ابن عادل، اللّباب: 3/333-334.

(2) أسلوب الحكيم: هو حمل لفظ وقع في كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله بذكر متعلقه، ينظر: عبد العزيز عتيق، علم البديع: ص: 186، أو هو تلقي السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيها على أنّه الأولى بحاله أو المهم له، ينظر: أحمد مطلوب، أساليب بلاغيّة: 265.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/557.

(4) محمد علي جميل، صفوة التّفاسير: 1/113.

الرّوايتين المذكورتين عند ابن أبي حاتم، ورواية ابن عبّاس «أنّ معاذ بن جبل وثعلبة بن عَنَمَة قالا: يا رسول الله ما بال الهلال يبدو دقيقًا مثل الخيط، ثمّ يزيد حتّى يعظم ويستوي ويستدير، ثمّ لا يزال ينقص ويدقّ، حتّى يعود كما كان، لا يكون على حال واحد؟ فنزلت»[1].

"وَلَا يُرَادُ بِذَلِكَ السُّؤَالُ عَنْ ذَاتِ الْأَهِلَّةِ، بَلْ عَنْ حِكْمَةِ اخْتِلَافِ أَحْوَالِهَا، وَفَائِدَةِ ذَلِكَ، وَلِذَلِكَ أَجَابَ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾، فَلَوْ كَانَتْ عَلَى حَالَةٍ وَاحِدَةٍ مَا حَصَلَ التَّوْقِيتُ بِهَا"[2]، و"قَدَّر بعضُهم مضافاً قبلَ ﴿الْأَهِلَّةِ﴾ أي: عَنْ حكم اختلاف الأهِلَّة؛ لأنّ السّؤال عن ذاتها غيرُ مفيدٍ، ولذلك أُجيبوا بقوله: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ﴾، وقيل: إنهم لَمَّا سألوا عن شيء قليلِ الجَدْوى أُجيبوا بما فيه فائدةٌ، وعَدَلَ عن سؤالِهم؛ إذ لا فائدة فيه، وعلى هذا فلا يُحْتاجُ إلى تقديرِ مضافٍ"[3]، "وَالسُّؤَالُ عَنِ الْأَهِلَّةِ لَا يَتَعَلَّقُ بِذَوَاتِهَا، إِذِ الذَّوَاتُ لَا يُسْأَلُ إِلَّا عَنْ أَحْوَالِهَا، فَيُعْلَمُ هُنَا تَقْدِيرٌ وَحَذْفٌ، أَيْ: عَنْ أَحْوَالِ الْأَهِلَّةِ، فَعَلَى تَقْدِيرِ كَوْنِ السُّؤَالِ وَاقِعًا بِهَا غَيْرَ مَفْرُوضٍ، فَهُوَ يَحْتَمِلُ السُّؤَالَ عَنِ الْحِكْمَةِ، وَيَحْتَمِلُ السُّؤَالَ عَنِ السَّبَبِ، فَإِنْ كَانَ عَنِ الْحِكْمَةِ؛ فَالْجَوَابُ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ جَارٍ عَلَى وَفْقِ السُّؤَالِ، وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ صَاحِبُ الْكَشَّافِ، وَلَعَلَّ الْمَقْصُودَ مِنَ السُّؤَالِ حِينَئِذٍ اسْتِثْبَاتُ كَوْنِ الْمُرَادِ الشَّرْعِيِّ مِنْهَا مُوَافِقًا لِمَا اصْطَلَحُوا عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ كَوْنَهَا مَوَاقِيتَ لَيْسَ مِمَّا يَخْفَى حَتَّى يُسْأَلَ عَنْهُ، فَإِنَّهُ مُتَعَارَفٌ لَهُمْ، فَيَتَعَيَّنُ كَوْنُ الْمُرَادِ مِنْ سُؤَالِهِمْ، إِنْ كَانَ وَاقِعًا هُوَ تَحَقُّقُ الْمُوَافَقَةِ لِلْمَقْصِدِ الشَّرْعِيِّ، وَإِنْ كَانَ السُّؤَالُ عَنِ السَّبَبِ، فَالْجَوَابُ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ﴾ غَيْرُ مُطَابِقٍ لِلسُّؤَالِ، فَيَكُونُ إِخْرَاجًا لِلْكَلَامِ عَلَى خِلَافِ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ، بِصَرْفِ السَّائِلِ إِلَى غَيْرِ مَا يَتَطَلَّبُ؛ تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ مَا صُرِفَ إِلَيْهِ، هُوَ الْمُهِمُّ لَهُ"[4].

نكتة التعريض بأنّ سؤالهم في غير محلّه:

قال صاحب المنار: "وزعموا أنّ مراد السّائلين بيان السّبب الطّبيعي لهذا الاختلاف، وأنّ الجواب إنمّا جاء ببيان الحكمة دون العلّة؛ لأنّه موضوع الدّين، جريًا على ما يسمّى

(1) السيوطي، الدر المنثور: 2/305، ومحمد رشيد رضا، تفسير المنار: 2/163.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/235.
(3) السّمين، الدُّرّ المصون: 2/304، وابن عادل، اللبّاب: 3/333.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/194- 195.

تـدبُّـر السبب الـطَّـبـيـعـيّ لاختلاف الأهلّة مـشـروع إذا ناسب مقامه

في البلاغة أسلوب الحكيم أو الأسلوب الحكيم، قال الأستاذ الإمام: كأنّه قال: كان عليكم أن تسألوا عن الحكمة والفائدة في اختلاف الأهلّة إن لم تكونوا تعرفونها، وإلّا فعليكم الاكتفاء بها، وعدم مطالبة الشّارع بما ليس من الشّرع، ففي الكلام تعريضٌ بأنّ سؤالهم في غير محلّه، ولو توجه هذا السّؤال، ممّن يتعلّم علم الفلك، إلى أستاذه فيه، لما عدّ قبيحًا، ولا قيل: إنّه في غير محلّه، ولكنّه موجّه من أمّي إلى نبيّ، لا إلى فلكيّ، فهو قبيح من هذا الوجه لا لذاته، وإلّا لكان النّظر في السّماوات والأرض، لأجل الوقوف على أسرار الخليقة، وأسباب ما فيها من الآيات والعبر مذمومًا، وكيف يذمّ؟ وقد أرشدنا الله تعالى إليه، وحثّنا في كتابه عليه ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ [ق: 6]، والآيات في هذا المعنى كثيرة"[1].

المناسبة والاتصال بين: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ و﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ﴾:

الاسـتـطـراد بِـذِكْـرِ فِـعْـلٍ مِن أفـعـالـهـم في الـحـجِّ يظنّونه مـن الـبِرّ، وهـو ليس كذلك

" قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾، اتَّصَلَ هَذَا بِذِكْرِ مَوَاقِيتِ الْحَجِّ لِاتِّفَاقِ وُقُوعِ الْقَضِيَّتَيْنِ فِي وَقْتِ السُّؤَالِ عَنِ الْأَهِلَّةِ، وَعَنْ دُخُولِ الْبُيُوتِ مِنْ ظُهُورِهَا، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ فِيهِمَا جَمِيعًا"[2]، فذكره للاستطراد، أو أنّهم سألوا عن الأمرين، أو أنّهم لما سألوا عمّا لا يعنيهم، ولا يتعلّق بعلم النّبوة، وتركوا السّؤال عمّا يعنيهم ويختصّ بعلم النّبوة، عقّب بذكره جواب ما سألوه تنبيهًا على أنّ اللّائق بهم أن يسألوا أمثال ذلك ويهتمّوا بالعلم بها[3].

(1) محمد رشيد رضا، (تفسير المنار)، 2/163.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/344.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/127.

دلالة المجيء من ظهور البيوت، في قوله: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾:

كان من عادتهم عند رجوعهم من الحجّ أن يدخلوا بيوتهم من خلفها ينقبون الحائط، أو من سقفها، قال الأكثر من أهل التّفسير: إنّهم الحُمْسُ، وهم قوم من قريش، وبنُو عامر بن صعصعة وثَقيف وخزاعة ... وإنّما سُمُّوا الحُمْسَ؛ لأنهم تَحمَّسوا في دينهم أي: تشدّدوا، وقال أهل اللّغة: الحماسة الشّدة في الغضب، والشّدة في القتال، والحماسة على الحقيقة الشّدّة في كلّ شيءٍ، ... فأعلمهم اللَّه ﷻ، أنّ تشدّدهم في هذا الإحرام ليس ببِرّ[1].

كـلّ متـشـدّد في الـفـهـم أو الممارسة يخرج عـن مـقـاصـد الدّين وسماحته

الغرض من حذف المعمول في قوله: ﴿مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ في الآية الكريمة:

لمّا نصَّ على معمول الفعل في الثاني، وهو قوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ دلّ على أنَّه محذوف من قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ أي: اتَّقى اللّه، ولكنّنا نلْحظ أنَّ الأشهر في اللغة أن يُحذف الثاني لدلالة الأول عليه، ومنه الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ [الحج: 75]، أي: (ومن النَّاس رسلًا)؛ حيث حذف من الثاني لدلالة الأوَّل عليه.

الـدلالـة عـلى أنَّ المـرجـوّ من المؤمن أن يتحلَّى بالتقوى في كلّ حال

فالحذف ههنا له غرضٌ آخر، وهو إتيان الفعل المتعدِّي في صورة اللازم؛ للدلالة على شدَّة التلبُّس بصفة التقوى، وكأنها صارت لصاحبها سجيَّة، تلازمه في كل حين.

وهذا مناسب لنفي البرّ من فعلهم المتكلَّف في إتيان البيوت من ظهورها، وإثبات ذات المتّقي المتمثِّل في (مَن)، وكأنَّه يقول لهم: لا أريد ظواهر مُتَكَلَّفةً مُدَّعاة، ولكن أريد رجالًا يتَّقون اللّه.

(1) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/262 - 263.

الإخبار عن المعنى بالذّات في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾:

جـعـل الـقـرآن الإنـسـانَ المتّقي ذاتَـه، هـو البرّ، لـلإقـبـال على التّقوى

"﴿مَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾ فجعل المتقي نفس البرّ؛ إلهابًا له إلى الإقبال على التّقوى"[1]، و" المراد به التّنبيه على تعكيسهم في السّؤال، بتمثيل حالهم بحال من ترك باب البيت، ودخل من ورائه، والمعنى: وليس البرّ بأن تعكسوا مسائلكم، ولكنّ البرّ برّ من اتّقى ذلك، ولم يجسر على مثله، وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوابِها؛ إذ ليس في العدول برٌّ، فباشروا الأمور من وجوهها، وَاتَّقُوا اللَّه في تغيير أحكامه، والاعتراض على أفعاله، لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، لكي تظفروا بالهدى والبرّ"[2].

عطف الإنشاء على الخبر في قوله تعالى: ﴿وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ﴾:

لـمـا كـان الـخـبر بـمـعـنـى الـنّـهـي عطف عليه الأمر

"وَقَوْلُهُ: ﴿وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى جُمْلَةِ ﴿وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ﴾، عَطْفَ الإِنْشَاءِ عَلَى الْخَبَرِ الَّذِي هُوَ فِي مَعْنَى الإِنْشَاءِ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ﴾ فِي مَعْنَى: النَّهْيِ عَنْ ذَلِكَ، فَكَانَ كَعَطْفِ أَمْرٍ عَلَى نَهْيٍ"[3].

ومن بلاغة هذا العطف استمالة المخاطب، وإقناعه بالفكر؛ وذلك ببيان حالةٍ منهيٍّ عنها في صورة الخبر، وتصحيحها، ثم إلزامه بالأمر مصحوبًا بالحالة المرغوبة.

المعنى البيانيّ للاستعارة في قوله: ﴿وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ﴾:

إتـيـان الـبرّ من وجـهـه المشروع في الأحـكـام مـكـرمـة وأدب والتزام

"اطلبوا البرّ من أهله ووجهه، ولا تطلبوه عند الجهلة المشركين"[4]، "هَذَا كَمَا تَقُولُ: أَتَيْتُ هَذَا الْأَمْرَ مِنْ بَابِهِ، وَقَالَ الْحَسَنُ: كَانُوا يَتَطَيَّرُونَ، فَمَنْ سَافَرَ، وَلَمْ تَحْصُلْ حَاجَتُهُ؛ كَانَ يَأْتِي بَيْتَهُ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ تَطَيُّرًا مِنَ الْخَيْبَةِ، فَقِيلَ لَهُمْ: لَيْسَ فِي التَّطَيُّرِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/102.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/127.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/198.
(4) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/68.

بِرٌّ، بَلِ الْبِرُّ أَنْ تَتَّقُوا اللَّهَ، وَتَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ"[1]، فباشروا الأمور من وجوهها الّتي يجب أن تباشر عليها، ولا تعكسوا. أو المراد وجوب الاعتقاد بأنّ جميع أفعاله تعالى حكمة وصواب من غير اختلاج شبهة، ولا اعتراض شكّ في ذلك، حتّى لا يسأل عنه لما في السّؤال من الاتّهام بمقارفة الشّكّ "[2]، وقد "خَرَجَتْ مَخْرَجَ التَّنْبِيهِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، عَلَى أَنْ يَأْتُوا الْبِرَّ مِنْ وَجْهِهِ، وَهُوَ الْوَجْهُ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ، فَذَكَرَ إِتْيَانَ الْبُيُوتِ مِنْ أَبْوَابِهَا مَثَلًا؛ لِيُشِيرَ بِهِ إِلَى أَنْ نَأْتِيَ الْأُمُورَ مِنْ مَأْتَاهَا الَّذِي نَدَبَنَا اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ[3]".

وجوه المجاز في قوله تعالى: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ :

إِتْيَانَ الْبُيُوتِ مِنْ ظُهُورِهَا كِنَايَةٌ عَنِ الْعُدُولِ عَنِ الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ، وإتيانها من أبوابها كِنَايَةٌ عَنِ التَّمَسُّكِ بِالطَّرِيقِ الصَّحِيحِ

وحملُ إتيانِ البُيوت على المجاز فيه قولان آخران غير ما سبق:

أحدها: أَنَّ ذَلِكَ ضَرْبُ مَثَلٍ، والْمَعْنَى: (لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تَسْأَلُوا الْجُهَّالَ، وَلَكِنِ اتَّقُوا، وَاسْأَلُوا الْعُلَمَاءَ)، فَهَذَا كَمَا يُقَالُ: (أَتَيْتُ الْأَمْرَ مِنْ بَابِهِ)، قَالَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ.

أي: ليس البرّ أن تسألوا عن الأهلّة وغيرها ممّا لا فائدة لكم فيه، فتأتون الأمور على غير ما يجب، فعلى هذا؛ البيوت وأبوابها وظهورها استعارة: يراد بالبيوت المسائل، وبظهورها السّؤال عمّا لا يفيد، وأبوابها السّؤال عمّا يحتاج إليه[4].

الثَّاني: أَنَّهُ ذَكَرَ إِتْيَانَ الْبُيُوتِ مِنْ أَبْوَابِهَا مَثَلًا لِمُخَالَفَةِ الْوَاجِبِ فِي الْحَجِّ، وَذَلِكَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَهُ فِي النَّسِيءِ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يُخْرِجُونَ الْحَجَّ عَنْ وَقْتِهِ الَّذِي عَيَّنَهُ اللَّهُ تَعَالَى، فَيُحَرِّمُونَ الْحَلَالَ، وَيَحِلُّونَ الْحَرَامَ، فَضُرِبَ مَثَلًا لِلْمُخَالَفَةِ، وَقِيلَ: وَاتَّقُوا اللَّهَ، تَحْتَ إِتْيَانِ كُلِّ وَاجِبٍ فِي اجْتِنَابِ كُلِّ مُحَرَّمٍ، قَالَهُ أَبُو مُسْلِمٍ.

وَفِيهِ بُعْدٌ - كما ذكر ابن عاشور - حَقِيقَةً وَمَجَازًا وَمَعْنًى؛ لِأَنَّ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/346.
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/165.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/346.
(4) ابن جزيّ، التّسهيل: 1/112.

الْآيَاتِ خِطَابٌ لِلْمُسْلِمِينَ، وَهُمُ الَّذِينَ سَأَلُوا عَنِ الْأَهِلَّةِ، وَالنَّسِيءُ مِنْ أَحْوَالِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَلِأَنَّهُ يؤول إِلَى اسْتِعَارَةٍ غَيْرِ رَشِيقَةٍ، وَقِيلَ: مَثَلٌ ضُرِبَ لِسُؤَالِهِمْ عَنِ الْأَهِلَّةِ مَنْ لَا يَعْلَمُ، وَأَمَرَهُمْ بِتَفْوِيضِ الْعِلْمِ إِلَى اللَّهِ، وَهُوَ بَعِيدٌ جِدًّا، لِحُصُولِ الْجَوَابِ مِنْ قَبْلُ، وَقِيلَ: كَانُوا يَنْذِرُونَ؛ إِذَا تَعَسَّرَ عَلَيْهِمْ مَطْلُوبُهُمْ أَلَّا يَدْخُلُوا بُيُوتَهُمْ مِنْ أَبْوَابِهَا، فَنُهُوا عَنْ ذَلِكَ، وَهَذَا بَعِيدٌ: مَعْنًى؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَهُمْ لَا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ، وَسَنَدًا؛ إِذْ لَمْ يَرْوِ أَحَدٌ أَنَّ هَذَا سَبَبُ النُّزُولِ[1].

أسباب النّزول تدلّ على إرادة الحقيقة لا المجاز:

الْحَمْلُ عَلَى الْحَقِيقَةِ أَوْلَى مِنِ ادِّعَاءِ الْمَجَازِ، عند انصراف القرينة إليها

ذكر للآية أكثر من سبب نزول، "وَمُلَخَّصُ هَذِهِ الْأَسْبَابِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ هَذِهِ الْآيَةَ؛ رَادًّا عَلَى مَنْ جَعَلَ إِتْيَانَ الْبُيُوتِ مِنْ ظُهُورِهَا بِرًّا، آمِرًا بِإِتْيَانِ الْبُيُوتِ مِنْ أَبْوَابِهَا، وهذه أسباب تضافرت عَلَى أَنَّ الْبُيُوتَ أُرِيدَ بِهَا الْحَقِيقَةُ، وَأَنَّ الْإِتْيَانَ هُوَ الْمَجِيءُ إِلَيْهَا، وَالْحَمْلُ عَلَى الْحَقِيقَةِ أَوْلَى مِنِ ادِّعَاءِ الْمَجَازِ، مَعَ مُخَالَفَةِ ما تضافرت مِنْ هَذِهِ الْأَسْبَابِ"[2].

قال القرطبيّ: "قُلْتُ: الْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَصَحُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ، لِمَا رَوَاهُ الْبَرَاءُ، قَالَ: كَانَ الْأَنْصَارُ إِذَا حَجُّوا؛ فَرَجَعُوا لَمْ يَدْخُلُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا، قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَدَخَلَ مِنْ بَابِهِ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: "﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾"، وَهَذَا نَصٌّ فِي الْبُيُوتِ حَقِيقَةً، خَرَّجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ[3]، وَأَمَّا تِلْكَ الْأَقْوَالُ؛ فَتُؤْخَذُ مِنْ مَوْضِعٍ آخَرَ لَا مِنَ الْآيَةِ، فَتَأَمَّلْهُ"[4].

يعود على (البيوت) وهو جمع كثرة لغير العاقل، وَالْأَفْصَحُ فِيهِ أَنْ يُفْرَد

مرجع الضّمير في لفظ ﴿أَبْوَٰبِهَا﴾، من قوله: ﴿وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾:

أفرد السّياق الضّمير المؤنّث؛ لأنّه عائد على جمع كثرة، قال أبو حيّان: "وَالضَّمِيرُ فِي: أَبْوَابِهَا، عَائِدٌ عَلَى الْبُيُوتِ، وَعَادَ كَضَمِيرِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/199.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/237.
(3) صحيح البخاري، حديث رقم: (1803)، وصحيح مسلم، حديث رقم: (3026).
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/346.

الْمُؤَنَّثِ الْوَاحِدَةِ؛ لِأَنَّ الْبُيُوتَ جَمْعُ كَثْرَةٍ، وَجَمْعُ الْمُؤَنَّثِ الَّذِي لَا يَعْقِلُ فُرِّقَ فِيهِ بَيْنَ قَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ، فَالْأَفْصَحُ فِي قَلِيلِهِ أَنْ يُجْمَعَ الضَّمِيرُ، وَالْأَفْصَحُ فِي كَثِيرِهِ أَنْ يُفْرَدَ"[1]، "والضّميرُ في (ظهورها وأبوابها) للبيوتِ، وجِيء به كضميرِ المؤنّثةِ الواحدِ؛ لأنّه يجوزُ فيه ذلك"[2].

سِر تكرار التّقوى في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾:

اهتمامًا بشأن التّقوى، أخبر بها عن البِرّ، ثم أمر بها في كلّ حال

أمرَ بذلك صريحاً بعد بيان أن البرَّ برُّ من اتّقى؛ إظهارًا لزيادة الاعتناءِ بشأن التّقوى[3]، وفي التّكرار إشارةٌ إلى مدارج المتقين ومنازلهم، فلا يزالون يرتقُون في مراتب العبودية، حتى يصلوا إلى رتبة الإحسان المتمثّلة في قوله ﷺ لرجلٍ: «اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[4]، فَأَمْرُهُ بِحَالَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا أَقْوَى مِنَ الْأُخْرَى؛ لِأَنِّي كَأَنِّي أَرَى الشَّيْءَ بِقُوَّةِ الْعِلْمِ بِهِ، وَحَقِيقَةُ التَّصْدِيقِ لَهُ أَقْوَى مِنْ أَنْ أَكُونَ أَعْلَمَ أَنَّ ذَلِكَ يَرَانِي، والإيماء إلى الحالتين في الآية الكريمة يظهر في سرّ إظهار اسم الجلالة في الأمر، وحذفه في الخبر.

نكتة الجمع والتقسيم في الآية الكريمة:

جمعت الآية الكريمة جملتين خبريَّتين، وهما قوله: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾، وعُطف عليهما جملتان أَمْرِيَّتَانِ: الْأُولَى رَاجِعَةٌ لِلْأُولَى، وَالثَّانِيَةُ رَاجِعَةٌ لِلثَّانِيَةِ، فعطف ﴿وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ على ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾، وعطف ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ على ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾ وهو من الإيجاز من جهة، ومن بديع الكلام من جهة أخرى.

دلالة تعلق الفلاح بالتّقوى في قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾:

قوله "﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: ظَاهِرُهُ التَّعَلُّقُ بِالْجُمْلَةِ الْأَخِيرَةِ،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/239.

(2) السّمين، الدّر المصون: 2/305.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/203.

(4) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء، وطبقات الأصفياء: 10/265، وهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ بلفظ: «أن تعبد الله كأنك تراه» صحيح البخاري: باب سؤال جبريل النبي ﷺ، حديث رقم: (50)، 1/19، وأخرجه مسلم في الإيمان باب: بيان الإيمان والإسلام والإحسان، حديث رقم: (9 و10).

جعل التّقوى علّة للفلاح، لتضمّنها كلّ صفات البرّ

وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ لِأَنَّ تَقْوَى اللَّهِ هُوَ إِجْمَاعُ الْخَيْرِ مِن امْتِثَالِ الْأَوَامِرِ، وَاجْتِنَابِ النَّوَاهِي، فَعَلَّقَ التَّقْوَى بِرَجَاءِ الْفَلَاحِ، وَهُوَ الظَّفَرُ بِالْبُغْيَةِ"[1]، و"جميع أفعاله تعالى حكمة وصواب، من غير اختلاج شبهة، ولا اعتراض شكّ، في ذلك؛ حتّى لا يسأل عنه لما في السّؤال من الإيهام بمقارفة الشّكّ، ثم علّله بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، أي: لتكون حالكم حال من يرجى دوام التّجدّد لفلاحه، وهو ظفره بجميع مطالبه من البرّ وغيره، فقد دلّ سياق الآية على كراهة هذا السّؤال"[2].

دلالة "لعل" في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾:

الرجاء والطمع للمخلوق والقبول من الخالق

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ترجٍّ في حق البشر[3]، فهي للترجي والإشفاق - كما ذكر الرازي - تقول: لعلّ زيدًا يكرمني، والترجي والإشفاق لا يحصلان إلا عند الجهل بالعاقبة، وذلك على الله تعالى محال، فلا بد فيه من التأويل وهو من وجوه:

أحدها: أنَّ معنى (لعلَّ) راجع إلى العباد، لا إلى الله تعالى، فقوله: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: 44]، أي: اذهبا أنتما على رجائكما وطمعكما في إيمانه، ثمَّ الله تعالى عالم بما يؤول إليه أمره.

وثانيها: أنَّ من عادة الملوك والعظماء أن يقتصروا في مواعيدهم التي يوطِّنون أنفسهم على إنجازها على أن يقولوا: لعل وعسى ونحوهما من الكلمات، أو للظَّفَر منهم بالرمزة، أو الابتسامة أو النظرة الحلوة، فإذا عثر على شيء من ذلك، لم يبقَ للطالب شكٌّ في الفوز بالمطلوب، فعلى هذا الطريق ورد لفظ (لعلَّ) في كلام الله تعالى.

ثالثها: (لعلَّ) للإطماع، لا بمعنى (كي) قال الزمخشري:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/240.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 3/103.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/560.

"وقد جاءت على سبيل الإطماع في مواضع من القرآن، ولكن لأنَّه إطماع من كريم رحيم، إذا أطمع فعل ما يطمع فيه لا محالة، لجرى إطماعه مجرى وعده المحتوم وفاؤه به – قال من قال: إنَّ (لعلَّ) بمعنى (كي)، و(لعلَّ) لا تكون بمعنى (كي)، ولكنَّ الحقيقة ما ألقيتُ إليك"[1].

ورابعها: أنَّه تعالى فعل بالمكلَّفين ما لو فعله غيره لاقتضى رجاء حصول المقصود، لأنَّه تعالى لما أعطاهم القدرة على الخير والشر، وخلق لهم العقول الهادية، وأزاح أعذارهم، فكلُّ من فعل بغيره ذلك، فإنَّه يرجو منه حصول المقصود، فالمراد من لفظة (لعلَّ) فعلُ ما لو فعله غيره لكان موجِبًا للرجاء[2].

وهذا معنى قولهم: إنَّ (لعلَّ) من الله واجبة، إن لم يرد بها حقيقتها بالنسبة إلى الباري تعالى.

وعليه فإنَّ معناها هنا: واتَّقوا الله راجين الفلاح، وطامعين فيه لا قاطعين به، فإنَّ القبول لله تعالى، وهذا كقوله: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: 57][3].

متشابه النظم بين: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ و﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ﴾:

وَالْمَقْصُودُ مِنَ الْآيَتَيْنِ إِظْهَارُ الْبِرِّ الْعَظِيمِ

"وَمَعْنَى نَفْيِ الْبِرِّ عَنْ هَذَا: نَفْيُ أَنْ يَكُونَ مَشْرُوعًا أَوْ مِنَ الْحَنِيفِيَّةِ، وَإِنَّمَا لَمْ يَكُنْ مَشْرُوعًا؛ لِأَنَّهُ غُلُوٌّ فِي أَفْعَالِ الْحَجِّ، فَإِنَّ الْحَجَّ وَإِنِ اشْتَمَلَ عَلَى أَفْعَالٍ رَاجِعَةٍ إِلَى تَرْكِ التَّرَفُّهِ عَنِ الْبَدَنِ، كَتَرْكِ الْمَخِيطِ، وَتَرْكِ تَغْطِيَةِ الرَّأْسِ؛ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الْمَقْصِدُ مِنْ تَشْرِيعِهِ إِعْنَاتَ النَّاسِ، بَلْ إِظْهَارَ التَّجَرُّدِ وَتَرْكَ التَّرَفُّهِ، وَلِهَذَا لَمْ يَكُنِ الْخُمْسُ يَفْعَلُونَ، ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ أَقْرَبُ إِلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ، فَالنَّفْيُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ﴾ نَفْيُ جِنْسِ الْبِرِّ عَنْ هَذَا الْفِعْلِ، بِخِلَافِ قَوْلِهِ

(1) الزمخشري، الكشاف: 1، 92.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 2/334.
(3) السمين، عمدة الحفاظ: 4/26.

الْمُتَقَدِّم: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ﴾ [البَقَرَة: 177]، وَالْقَرِينَةُ هُنَا هِيَ قَوْلُهُ: وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِها، وَلَمْ يَقُلْ هُنَالِكَ: وَاسْتَقْبِلُواْ أَيَّةَ جِهَةٍ شِئْتُمْ. وَالْمَقْصُودُ مِنَ الْآيَتَيْنِ إِظْهَارُ الْبِرِّ الْعَظِيم، وَهُوَ مَا ذُكِرَ بَعْدَ حَرْفِ الِاسْتِدْرَاكِ فِي الْآيَتَيْنِ، بِقَطْعِ النَّظَرِ عَمَّا نَفَى عَنْهُ الْبِرَّ، وَهَذَا هُوَ مَنَاطُ الشَّبَهِ وَالِافْتِرَاقِ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ"[1].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الوقت، والزّمان، والمدّة:

"المواقيت: جمع ميقات، وهو مفعال من الوقت، والوقت والمدّة والزّمان، تتقارب لكنّ المدّة المطلقة أوسع هذه الألفاظ، فإنّها امتداد حركة الفلك، أي: اتّصالها من مبدئها إلى غايتها، والزّمان مدّة مقسومة من المدّة المطلقة، والوقت الزّمان المفروض للعمل، ومعنى مواقيت للنّاس، أي: ما يتعلّق به من أمور معاملاتهم ومصالحهم"[2].

ولمَّا كان الحديث عن مصالح الناس، ومتطلباتهم، ومقاصدهم الدينيّة والدنيويّة؛ ناسب أن يُعَبَّر بلفظ يتَّفِق وهذه المعاني، هو (المواقيت).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/197.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/401.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث، سورة البقرة من الآية 181 إلى الآية 247
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 181 إلى الآية 247 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 3 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-54-5
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 3 : سورة البقرة من الآية 181 إلى الآية 247.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-54-5
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1789539 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»